

مفهوم الزهد عند أبي حامد الغزالي

أ.د. عليوان أسعيد

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -

مقدمة:

حياة الزهد ليست خاصة بالمسلمين بل هي موجودة قبلهم في الفكر الشرقي القديم وفي الديانات السابقة على الإسلام، ولكنها اتخذت عند المسلمين طابعا خاصا واتجهت الحياة الروحية اتجاهاين مختلفين أحدهما ينحو نحو وحدة الوجود، مطبوع بطابع تصوفي فلسفي يجعل صاحبه ينقطع عن الحياة العملية¹، وثانيهما تربوي يقوم على تربية النفس وتهذيبها وتقوية صلتها بربها ويمثله جماعة من العلماء منهم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (450هـ/1058م - 505هـ/1111م) الذي يعدّ من أكبر علماء الإسلام و فلاسفته على الإطلاق بحيث طبع التاريخ الإسلامي بطابعه، وقد جمع بين الفلسفة والمنطق والفقه والأصول والتصوف. ومن أهم كتبه "إحياء علوم الدين" الذي قيل عنه من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء. "وميزان العمل" و"المنفذ من الضلال"².

¹ عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، د. ط. ش. و ن ت. الجزائر. 1978. ص 55.

² الزركلي، الأعلام، ج 6، ص 312.

مفهوم الزهد عند أبي حامد الغزالي 1. د. عليوان اسعيد

وقد استطاع الغزالي دون قصد منه أن يطبع التاريخ الإسلامي بطابعه بحيث لم يحدث لمفكر إسلامي أن أثر مثله. وقد استطاع الغزالي أن يجعل التصوف علما قائما بذاته وقد وجد في العصر العباسي الذي اتجه المسلمون فيه إلى الترف مما أدى بجماعة من المسلمين أن يرفضوا حياة البذخ ويتجهون إلى الزهد تنظيرا وتطبيقا ومنهم الغزالي كما ذكرنا الذي وصل تأثيره إلى الجزائر، فأثر في كثير من مفكراتها كالثعالبي والسنوسي وغيرهم وهو ما جعلنا نختار مفهوم الزهد عنده في هذه الورقة، وقد اعتمد منهجية تقوم في مجملها على التقسيم الثلاثي، فقد عرف الزهد ثم قسم أنواع الزاهدين إلى ثلاث وأتى إلى فضيلة الزهد لينبئها على ثلاث وهو ما فعله في درجات الزاهدين ثم في أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه وفي أقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه وكذا أحكام الزهد ثم في الزهد فيما هو من ضروريات الحياة. وأخيرا في علامات الزهد. ولنشرع في هذا العرض ابتداء من حقيقة الزهد.

حقيقة الزهد :

ينطلق الغزالي من اعتبار الزهد في الدنيا مقاما¹ - شريفا ينتظم من علم وحال وعمل² مبنيا ذلك على أن الإيمان عقد وقول وعمل وذلك قبل أن يحدد معنى الزهد.

¹ المقام "عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف. فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك "الجرجاني، التعريفات، د. ط، الدار التونسية للنشر، 1971م، ص 119.

² الحال : "هو معنى يرد على القلب من غير تصنع، ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة، ويزول بظهور صفات النفس، سواء يعقبه المثل أو لا. فإذا دام المعيار 150 العرد 18

معنى الزهد:

الزهد لغة من زهد يزهد زهدا. زهد في الشيء وعنه، أي أعرض عنه وتركه¹.

وقد عرفه الغزالي بأنه "انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه"². فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره، فإنما عدل لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً.

وبهذا فإن حال الزهد يقتضي مرغوباً عنه ومرغوباً فيه يكون خيراً من المرغوب عنه.

ويشترط في المرغوب عنه أن يكون أيضاً مرغوباً فيه بوجه ما، فتارك التراب لا يسمى زاهداً، وإنما تارك الدراهم هو الزاهد.

أما المرغوب فيه فيشترط فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، ولذلك فإن البائع لا يشتري شيئاً إلا إذا كان عنده (المشتري) خيراً من المبيع، فيكون حاله بالنسبة إلى المبيع زاهداً، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً³. قال تعالى: "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين"⁴. يتوصل الغزالي إلى أن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في

وصار ملكاً يسمى مقاما، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود" (المرجع نفسه ص 44).

¹ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي، لاروس، 1989م ص 588.

² أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط 1. دار الفكر، 1975م، م 5 ج 13، ص 107.

³ المصدر نفسه، ص 107، 108.

⁴ سورة يوسف / 20.

مفهوم الزهد عند أبي حامد الغزالي 1. د. عليوان اسعيد

الدنيا . والعكس يكون زاهدا في الآخرة ، ولكن اسم الزهد يُخصص عادة للزاهد في الدنيا¹ ، بعد هذابين لنا الغزالي أنواع الزاهدين .

أنواع الزاهدين :

يقسمهم إلى ثلاث :

الزاهد المطلق : الذي يرغب عن كل ما سوى الله ولا يحب إلا الله تعالى .

الزاهد غير المطلق : الزاهد في الدنيا دون الزهد في حظوظ الآخرة من حور وقصور وغيرها .

- آخر درجات الزهد : هو الزاهد في جوانب من الدنيا دون جوانب أخرى كالزاهد في المال دون الجاه

وبالجملة فالزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا² ، فالزهد إذن عبارة عن رغبة الزاهد عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله وهي الدرجة العليا³ .

بناء الزهد : يبنى الزهد على العلم .

ويقصد الغزالي بالعلم هنا . العلم بأن الآخرة خير وأبقى . فالدنيا كالثلج ما أن يوضع تحت الشمس حتى يزول . والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له .

فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في بيع الدنيا وشراء الآخرة إلى حدّ بيع الإنسان نفسه لله عزّ وجل "إنّ الله اشترى

¹ المصدر نفسه ، ص 108 .

² المصدر نفسه ، ص 109 .

³ المصدر نفسه ، ص 109 .

مفهوم الزهد عند أبي حامد الغزالي ١. د. عليوان اسعيد
من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة " ¹ وبين بأنهم رابحون " فاستبشروا
ببيعكم الذي بايعتم به " ² ولكن كيف نفسر علم الناس بهذا وعدم زهدهم ؟
يرى الغزالي أن ذلك راجع ، إما لضعف العلم واليقين عند الإنسان أو
لغلبة الشهوة عليه وقهر الشيطان له أو لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف
إلى أن يتخطفه الموت ³ . أما :

العمل الصادر عن حال الزهد :

فيتمثل في ترك واحد ، هو ترك الدنيا برمتها فيخرج من القلب حبها
ويملاؤه بحب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف
اليدين والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم المبيع ولم
يأخذ الثمن ⁴ ، ويشترط الغزالي في صحة هذا الترك أن يكون لك مال ودنيا
وتخلّيت عنهما كليّة وإلا فإن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه ⁵ . كما يشترط
أن يكون الزهد في المال ليس ببذله سخاء و مروءة وغير ذلك و إنما يكون
للعلم بحقارة الدنيا بالإضافة إلى نفاسة الآخرة ⁶
الغزالي ينتقل بعد هذا العرض لمفهوم الزهد إلى بيان فضيلته .

¹ - التوبة / 201 .

² التوبة / 111 .

³ المصدر نفسه ، ص 110 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 110 .

⁵ المصدر نفسه ص 111 .

⁶ المصدر نفسه ، ص 112 .

فضيلة الزهد :

يستند الغزالي في توضيح فضيلة الزهد إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والآثار مبتدئاً بالقرآن الكريم و خاتماً بالآثار .

- القرآن الكريم :

يبدأ الاستدلال بقوله تعالى عن قارون "فخرج على قومه في زينته" إلى قوله تعالى "وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن"¹، فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الشئ ، وقال أيضا "من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب"².

وختم استدلاله بقوله تعالى "الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة"³ وهذا وصف للكفار مما يعني أن المؤمن هو الذي يتّصف بنقيض هذا وهو تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا .

ب- الحديث النبوي الشريف :

يستدلّ الغزالي بكثير من الأحاديث على فضيلة الزهد ، منها "من أصبح وهمّه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلّا ما كتب له ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله له همّه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة"⁴.

¹ - القصص 79 - 80

² الشورى / 20 .

³ إبراهيم / 3 .

⁴ رواه ابن ماجه .

مفهوم الزهد عند أبي حامد الغزالي 1. د. عليوان اسعيد

ومنها مقالة حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا مؤمن حقاً. فقال له النبي (ص)، وما حقيقة إيمانك؟". قال "عزفت نفسي عن الدنيا، فاستوى عندي حجرها وزهبتها. وكأني بالجنة والنار، وكأني يعرش ربي بارزا، فقال صلى الله عليه وسلم: "عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان"¹.

وقد علق الغزالي على هذا بقوله: "فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين. وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قال: "عبد نور الله قلبه بالإيمان"².

ج- الآثار في فضيلة الزهد:

يستدل الغزالي أيضاً بكثير من الآثار منها: قول إبراهيم بن أدهم "قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى تُرفع هذه الحجب. الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح. فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب، وإذا سُررت بالمدح فأنت مُعجب، والمعجب يحبط العمل"³.

وقول الثوري "الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح. من عرفها لم يفرح برخاء، ولم يحزن على شقاء"⁴.

وقول الحسن البصري "أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب. كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة: لم يُطو له ثوب

¹ رواه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك.

² - المصدر نفسه، ص 114.

³ - المصدر نفسه، ص 121.

⁴ المصدر نفسه، ص 122.

مفهوم الزهد عند أبي حامد الغزالي ١. د. عليوان اسعيد
، ولم يُنصب له قدر ولم يُجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصناعة
طعام قطّ. فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم. يفترشون وجوههم، تجري
دموعهم على خدودهم، ينجون ربّهم في فكّك رقابهم: كانوا إذا عملوا الحسنة
دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن
يغفرها لهم، فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلّا
بالمغفرة، رحمة الله عليهم ورضوانه" ¹.

درجات الزهد وأقسامه:

يقسمها الغزالي إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: درجاته بالإضافة إلى تقسيمه: وهي ثلاث:

الدرجة الأولى (السفلى): الزهد في الدنيا مع اشتهاها: فيجاهد نفسه
ويكفها، وصاحبها يسمى المتزهد وهو الذي يذيب أولاً نفسه ثم كيسه. وهذا
على خطر إذ ربّما تغلبه شهوته فيعود إلى الدنيا.

الدرجة الثانية: ترك الدنيا طوعاً لاستحقارها بالإضافة إلى الآخرة:

كالذي يترك درهما لأجل درهمين. ولكن هذا الزاهد يرى زهده فيكاد
يكون معجبا بنفسه وبزهده وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده فلا يراه لأنه
عرف أن الدنيا لا شيء. فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة. وهذه الدرجة
درجة الكمال في الزهد وهو ناتج عن كمال المعرفة "ومثل من ترك الدنيا
للاخرة عند أهل المعرفة كمثل من منعه من باب الملك كلب على بابه. فألقى
إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ

¹ - المصدر نفسه، ص 123

مفهوم الزهد عند أبي حامد الغزالي 1. د. عليوان أسعيد

التنوع الثالث :أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب عنه (المزهود فيه) يرى الغزالي أن انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب عنه كثرت فيه الأقاويل .ونكتفي بالإشارة إلى انقسامه على وجه الإجمال إلى ثلاثة أقسام :

الإجمال في الدرجة الأولى :أن يزهد في كل ما سوى الله حتى يزهد في نفسه أيضا .

الإجمال في الدرجة الثانية :أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة .

الإجمال في الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما¹

يتوصل الغزالي مما سبق إلى أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ،ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا ،فقصر أمله لا محالة ،لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ،ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئاً أراد دوامه ،ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة .فإذا رغب عنها لم يردّها² .

أحكام الزهد: بعد الحديث عن أقسام الزهد بالإضافة إلى المزهود فيه بين أحكامه . فيقسمها إلى ثلاثة أحكام :

فرض :وهو الزهد في الحرام .

ونفل :وهو الزهد في الحلال .

وسلامة : وهو الزهد في الشبهات³ .

¹ المصدر نفسه، ص125.

² المصدر نفسه، ص126.

³ المصدر نفسه، ص128.

الزهد فيما هو من ضروريات الحياة :

1- المطعم : لا بد للإنسان من قوت حلال يقيم به صلبه والزهاد في المطعم درجات :

-الدرجة العليا: الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدته وخوف المرض وأن لا يدخر من غذائه لعشائه .

- الدرجة الثانية: أن يدخر شهرا أو أربعين يوما .

-الدرجة الثالثة: أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ولا زهد بعد هذه الدرجة¹.

2- الملبس: وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان ، وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل .

.....وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت فإذا صار له زوج من كل صنف فقد خرج من جميع أبواب الزهد².

ونحن لو طبقنا هذه القاعدة لأقفلت مصانع النسيج في اوروبا أبوابها .

المسكن : هو أيضا ثلاث درجات :

أعلاها أن لا يكون له مأوى خاص به ، ووسطها أن يكون له مأوى من كوخ وشبهه

¹ المصدر نفسه، ص 131.

² المصدر نفسه، ص 132.

وأدناها أن يكون له بيت مبني على قدر الحاجة ومن غير زينة. فإن زاد عن هذا فقد جاوز حدّ الزهد في المسكن¹.

الزهد في أثاث البيت :

وهو أيضا ثلاث درجات أعلاها الضروري جدا ، وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة ولكن الآلة الواحدة يتعدد استعمالها في الأكل والشرب وحفظ الأمتعة وأسفل الدرجات أن يكون له بعدد كل حاجة آلة خاصة بها².

علامات الزهد :

يضبطها الغزالي في ثلاث علامات هي :

1- أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود لقوله تعالى : "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم"³.

2- أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه .

3- أن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة ، إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة ، إمّا محبة الدنيا وإمّا محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح . فالماء إذا دخل خرج الهواء ، ولا يجتمعان وكلّ من أنس بالله اشتغل به ، ولم يشغل بغيره⁴.

¹ المصدر نفسه، ص 139.

² المصدر نفسه، ص 142.

³ سورة الحديد / 23

⁴ المصدر نفسه، ص 150 .

ويختم الغزالي حديثه عن الزهد ببيان أنه لا يتم إلا بالتوكل على الله حق توكّله¹.

الخاتمة:

نتوصل مما سبق إلى القول بأنه من الصعوبة بما كان الوصول إلى الدرجة العليا من الزهد إلا لفئة خاصة قليلة، ولو اتجه المجتمع كله إلى هذه الدرجة لتعطّلت الحضارة وتوقف المجتمع عن أداء رسالته التي خلّق من أجلها، ولكنه لا بد من الزهد في الحرام والابتعاد عن الشبهات والاقتصار على الضروري من الحلال، والحرص على الدرجة الأخيرة من الزهد على الأقل.

إنّ الزهد يؤدي إلى سياسة التقشف التي لو طبقنا آراء الغزالي فيها فيما يتعلق مثلاً بالمأكل والملبس والمسكن لحلّلنا مشكلة الفقر وأزمة السكن ولأقفلت كثير من المصانع في أوروبا وآسيا أبوابها، ولوفرنا سنوياً ملايين الدولارات، ولتحررت بلداننا من كثير من الضغوطات الأجنبية ولحلّلنا كل مشكلاتنا الداخلية الناتجة عن الظلم والأنانية والتسلط ولصرنا مجتمعاً ملائكياً، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

والله وليّ التوفيق.

¹ - المصدر نفسه، ص 152